

قَصِيدَةُ ابْنِ زُرَيْقِ الْبَغْدَادِيِّ

قَالَ النَّاجُ ابْنُ السُّبْكِ فِي طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ :

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو سَعْدٍ فِي الذِّيلِ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا مُحَمَّدٍ بَنَ حَزْمٍ قَالَ : مَنْ تَحْتَمَّ بِالْعَقِيقِ
وَقَرَأَ لِأَبِي عَمْرٍو وَتَفَقَّهَ لِلشَّافِعِيِّ وَحَفِظَ قَصِيدَةَ ابْنِ زُرَيْقٍ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ ظَرْفَهُ .
قُلْتُ : وَقَصِيدَةُ عَلِيِّ بْنِ زُرَيْقِ الْبَغْدَادِيِّ غَرَاءُ بَدِيعَةٍ (ثُمَّ ذَكَرَ سَنَدَهُ إِلَيْهَا
وَأَنْشَدَهَا ثُمَّ قَالَ) وَذَكَرَ ابْنُ السَّمْعَانِيِّ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ قِصَّةً عَجِيبَةً .
فَرَوَى بِسَنَدِهِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَغْدَادٍ قَصَدَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْدَلُسِيَّ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ
بِنَسَبِهِ ، فَأَرَادَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنْ يَبْلُوَهُ وَيَخْتَبِرَهُ ، فَأَعْطَاهُ شَيْئًا نَزْرًا .
فَقَالَ الْبَغْدَادِيُّ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، سَلَكَتُ الْبَرَارِيَّ وَالْقِفَارَ ، وَالْمَهَامَةَ
وَالْبِحَارَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَأَعْطَانِي هَذَا الْعَطَاءَ النَّزْرَ ! فَانْكَسَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَاعْتَلَّ
وَمَاتَ ، وَشُغِلَ عَنْهُ الْأَنْدَلُسِيُّ أَيَّامًا ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ ، فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ ، فَانْتَهَوْا إِلَى
الْحَنَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَسَأَلُوا الْحَنَانِيَّةَ عَنْهُ فَقَالَتْ : إِنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، وَمُذْ أَمْسِ
لَمْ أَبْصِرْهُ ، فَصَعِدُوا فَدَفَعُوا الْبَابَ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ وَعِنْدَ رَأْسِهِ رُقْعَةٌ فِيهَا مَكْتُوبٌ :

لَا تَعْدُلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُولِعُهُ قَدْ قُلْتُ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ
جَاوَزْتُ فِي لَوْمِهِ حَدًّا أَضْرَبَهُ مِنْ حَيْثُ قَدَّرْتُ أَنَّ اللَّوْمَ يَنْفَعُهُ
فَاسْتَعْمِلِي الرَّفْقَ فِي تَأْنِيْبِهِ بَدَلًا مِنْ عَذْلِهِ فَهُوَ مُضْنَى الْقَلْبِ مُوجَعُهُ
قَدْ كَانَ مُضْطَلِعًا بِالْبَيْنِ يَحْمِلُهُ فَضَيِّقَتْ بِحُطُوبِ الدَّهْرِ أَضْلَعُهُ
يَكْفِيهِ مِنْ لَوْعَةِ التَّشْتِيتِ أَنَّ لَهُ مِنْ النَّوَى كُلِّ يَوْمٍ مَا يُرْوَعُهُ
مَا أَبَ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجَهُ رَأَيْ إِلَى سَفَرٍ بِالْعَزْمِ يُجْمِعُهُ
كَأَنَّهَا هَوَى فِي حِلٍّ وَمُرْتَحِلٍ مُوَكَّلٌ بِفَضَاءِ اللَّهِ يَدْرَعُهُ
إِذَا الزَّمَانُ أَرَاهُ فِي الرَّحِيلِ غَنَى وَلَوْ إِلَى السَّنْدِ أَضْحَى وَهُوَ يُزْمِعُهُ

تَأْبَى الْمَطَامِعُ إِلَّا أَنْ تُجَشِّمَهُ
وَمَا مُجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ تَوْصِلُهُ
وَاللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ الْخَلْقِ رِزْقَهُمْ
لَكِنَّهُمْ مَلِئُوا حِرْصًا فَلَسْتَ تَرَى
وَالْحِرْصُ فِي الرِّزْقِ وَالْأَرْزَاقِ قَدْ قُسِمَتْ
وَالدَّهْرُ يُعْطِي الْفَتَى مَا لَيْسَ يَطْلُبُهُ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَعْدَادٍ لِي قَمْرًا
وَدَعَيْتُهُ وَبِوُدِّي لَوْ يُودِّعُنِي
وَكَمْ تَشَفَّعَ بِي أَنْ لَا أَفَارِقَهُ
وَكَمْ تَشَبَّثَ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضُحَى
لَا أَكْذِبُ اللَّهَ ثَوْبُ الْعُذْرِ مُنْخَرِقٌ
إِنِّي أَوْسَعُ عُذْرِي فِي جِنَايَتِهِ
أَعْطَيْتُ مُلْكًَا فَلَمْ أَحْسِنْ سِيَاسَتَهُ
وَمَنْ عَدَا لِإِسَاءَةِ ثَوْبِ النَّعِيمِ بِلَا
إِعْتِضُتْ مِنْ وَجْهِ خَلِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ
كَمْ قَائِلٍ لِي ذُقْتَ الْبَيْنَ قُلْتُ لَهُ
أَلَا أَقَمْتَ فَكَانَ الرُّشْدُ أَجْمَعُهُ
إِنِّي لَأَقْطَعُ أَيَّامِي وَأُنْفِذُهَا
بِمَنْ إِذَا هَجَعَ النُّوَامُ بِتُّ لَهُ

لِلرِّزْقِ كَدًّا وَكَمْ مِمَّنْ يُودِّعُهُ
رِزْقًا وَلَا دَعَاةَ الْإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ
لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ يُضَيِّعُهُ
مُسْتَرْزِقًا وَسِوَى الْغَايَاتِ تُقْنِعُهُ
بَغْيِي إِلَّا إِنْ بَغْيِي الْمَرْءُ يَصْرَعُهُ
يَوْمًا وَيُطْعِمُهُ مِنْ حَيْثُ يَمْنَعُهُ
بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ
صَفْوُ الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أُوَدِّعُهُ
وَاللِّصْرُورَاتِ حَالٌ لَا تُشَفِّعُهُ
وَأَدْمَعِي مُسْتَهْلَاتٌ وَأَدْمَعُهُ
عَنِّي بِفُرْقَتِهِ لَكِنْ أُرْقِعُهُ
بِالْبَيْنِ عَنْهُ وَقَلْبِي لَا يُوسِّعُهُ
وَكُلُّ مَنْ لَا يُسْوِسُ الْمُلْكََ يُجْلَعُهُ
شُكْرٍ عَلَيْهِ فَعَنْهُ اللَّهُ يَنْزِعُهُ
كَأَسَا تَجَرَّعَ مِنْهَا مَا أُجْرَعُهُ
الدَّنْبُ وَاللَّهُ ذَنْبِي لَسْتُ أَدْفَعُهُ
لَوْ أَنَّنِي يَوْمَ بَانَ الرُّشْدُ أَتْبَعُهُ
بِحَسْرَةٍ مِنْهُ فِي قَلْبِي تُقْطَعُهُ
بِلَوْعَةٍ مِنْهُ لَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُهُ

لَا يَظْمَنُ لِحَنِي مَضْجِعٌ وَكَذَا
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ يُفْجِعُنِي
حَتَّى جَرَى البَيْنُ فِيمَا بَيْنَنَا بِيَدٍ
قَدْ كُنْتُ مِنْ رَيْبِ دَهْرِي جَارِعًا فَرِقًا
بِاللَّهِ يَا مَنْزِلَ القُصْرِ الَّذِي دَرَسْتُ
هَلِ الزَّمَانُ مَعِيدٌ فَيْكَ لَدَتْنَا
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مَنْ أَصْبَحَتْ مَنْزِلُهُ
مَنْ عِنْدَهُ لِي عَهْدٌ لَا يُضَيِّعُهُ
وَمَنْ يُصَدِّعْ قَلْبِي ذِكْرُهُ وَإِذَا
لَأُضْمِرَنَّ لِدهْرٍ لَا يُمْتَعِنِي
عِلْمًا بِأَنَّ اضْطِبَارِي مُعَقَّبٌ فَرَجًا
عَسَى اللَّيَالِي الَّتِي أَضْنَتْ بِفُرْقَتِنَا
وَإِنْ يَنْلُ أَحَدٌ مِنَّا مَنِيَّتَهُ
لَا يَظْمَنُ لَهُ مُذْ بِنْتُ مَضْجِعُهُ
بِهِ وَلَا أَنَّ بِي الأَيَّامَ تُفْجِعُهُ
عَسْرَاءَ تَمْنَعُنِي حَظِي وَتَمْنَعُهُ
فَلَمْ أُوقِ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَجْزَعُهُ
آثَارُهُ وَعَفْتُ مُذْ بِنْتُ أَرْبَعَهُ
أَمْ اللَّيَالِي الَّتِي أَمْضَتْهُ تُرْجِعُهُ
وَجَادَ عَيْتٌ عَلَى مَغْنَاكَ يُمْرِعُهُ
كَمَا لَهُ عَهْدٌ صِدْقٍ لَا أُضَيِّعُهُ
جَرَى عَلَى قَلْبِهِ ذِكْرِي يُصَدِّعُهُ
بِهِ وَلَا بِي فِي حَالٍ يُمْتَعِنُهُ
فَأُضَيِّقُ الأَمْرَ إِنْ فَكَّرْتُ أَوْسَعُهُ
جِسْمِي سَتَجْمَعُنِي يَوْمًا وَتَجْمَعُهُ
فَمَا الَّذِي بِقِضَاءِ اللَّهِ يَصْنَعُهُ

قَالَ : فَلَمَّا وَقَفَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى هَذِهِ الأَبْيَاتِ بَكَى حَتَّى خَضَبَ لِحِيَّتَهُ وَقَالَ :
وَدِدْتُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ حَيٌّ وَأَشَاطِرُهُ نِصْفَ مُلْكِي .

وَكَانَ فِي رُقْعَةِ الرَّجُلِ : مَنْزِلِي بِبَغْدَادَ فِي المَوْضِعِ الفُلَانِيِّ المَعْرُوفِ بِكَذَا ، وَالقَوْمُ
يُعرفُونَ بِكَذَا ، فَحَمَلَ إِلَيْهِمْ خَمْسَةَ آلافِ دِينَارٍ وَعَرَفَهُمْ مَوْتَ الرَّجُلِ .

انتهى من طبقات الشافعية الكبرى للتاج ابن السبكي

عدي بن محمد